المحور السابع: مدخل إلى الفلسفة وفلسفة التربية البدنية والرياضية

الدرس رقم 11: نشأة الفلسفة

يختلف المؤرخون والعلماء في متى بدأت الفلسفة، ومتى بدأ العقل البشري ينضج وينتظم أي يتفلسف، طالبًا المعرفة الحقيقية وساعيًا وراء الحكمة. وأصحاب الحكمة هم الفلاسفة. الفيلسوف يحيط فكره بمعرفة عصره ومصيره، فيلم بها من جميع جوانبها، ويقرب عناصرها بعضها من بعض ويمزجها مزجًا يحقق اتساقًا وتناغمًا وانسجامًا، مستفيدا من تقاليد الفكر الفلسفي التي تكاملت عبر العقول والعصور.

لكن ثم توافق عام على اعتبار الفلسفة قد ظهرت في اليونان في القرن الرابع قبل الميلاد، وتحديدًا في الحاضرة المالطية على شاطئ آسيا الصغرى، حيث جسد كل من طاليس وأنكسيمندر ظهور العقل. لا يعرف هؤلاء المالطيون عن أنفسهم بوصفهم فلاسفة، فالكلمة من وضع فيثاغورس الذي رفض أن يعتبر نفسه حكيمًا (*Sophos*)، ذلك أن امتلاك المعرفة كان من امتياز الآلهة. لقد فضل أن يطلق على نفسه اسم "محب المعرفة" (*philosophos*). إلا أن كلمة فلسفة وفيلسوف لم تأخذا معنى دقيقًا إلا على يد أفلاطون وأرسطو.

وإذا كانت الفلسفة غنية بما لها من تراث طويل، فعلينا ألا نتخيلها مادة جامدة تقع خارج الزمان، فالفلسفة التي تعتبر محبة المعرفة والحكمة قد أعدت نفسها لتكوين معرفة كلية، وباستثناء بعض الاختصاصات كالتاريخ على سبيل المثال، فإن المعرفة التي تحت قيادتها كثيرة ومتعددة.

إبان عدة قرون ظل الفيلسوف وفي وقت واحد عالم رياضيات وفيزيائي.

وعالم أحياء، بل أحيانًا رجل قانون أو رجل اقتصاد، ويجسد كل ذلك كل من أفلاطون وأرسطو وديكارت وليبنستر و كانط وهيجل وأغست كونت هذه الروح الموسوعية، فلا شيء يبدو خارج نظرهم. ولكن شيئًا فشيئًا وجدت الفلسفة نفسها إزاء مواضيع خاصة بها وآراء اختصاصات مستقلة لا علاقة كبيرة لها بها، مثل الاختصاصات العلمية كالفزياء والبيولوجيا.

ماهية الفلسفة

ظلت الفلسفة ولمدة طويلة ملكة. ومع ذلك فقد شهدت تفتح بعض المعارف التي كانت تأخذ عليها برعايتها استقلال العلوم عن الفلسفة. ولكن رغم ذلك لم يكن بالامكان تجاوز الفلسفة التي هي محبة المعرفة والحكمة، هذا ما تشهد عليه التطورات الفنية التي تشهدها الفلسفة المعاصرة.

فما هي الفلسفة؟ لنكن صريحين، السؤال مفتوح، ولدينا أجوبة بقدر ما عندنا من فلاسفة. فهذا السؤال سؤال فلسفي بحد ذاته، ومن الصعب أن نجد له جوابًا يقنع جميع المهتمين بالفلسفة، سواء كانوا فلاسفة أو دارسين. فالأسئلة الفلسفية بطبيعتها لا يُجاب عليها مرة واحدة أو كتحديد للماهية الأزلية، بل تبقى كمثار جدل وحوار متصل ليس فقط بين مفكري العصر الواحد، ولكن أيضًا بين الحقب التاريخية المتعاقبة.

ونعود غالبًا إلى الاشتقاق في محاولة منا لإعطاء تعريف لها، فالفلسفة تشتق من اليونانية *philein* التي تعني "أحب"، ومن *Sophia* التي تترجم غالبًا بالحكمة، والتي تعني غالبا "فن العيش". ومع ذلك، عبارة *Sophia* لا يمكن اختصارها بهذا الشكل، فلا يكفي أن نقول أن الفلسفة تعني محبة الحكمة، فكلمة *Sophia* يمكن أن تترجم أيضًا بالعلم أو المعرفة.

وهكذا يمكن تمييز الفلسفة على طريقتين:

١. الطريقة التي تقوم على اعتبارها عملية نظرية هدفها الوصول إلى معرفة.

٢. الطريقة التي تعتبرها نشاطًا له مغزى علمي، أي كفن حياة أو كطريق نحو الحكمة.

وعليه، فمن تعاريف الفلسفة أنها "موضوع يحاول الباحث من خلاله أن يتعدى الصور الجزئية للعالم، تلك الصور التي ترسمها لنا العلوم المختلفة، وكل علم في مجاله الخاص، ويسعى الباحث في مجال فلسفته إلى التحول إلى مفهوم شامل، أو صورة كلية للوجود، بحيث يأخذ كل علم وكل بحث أو نشاط فكري مكانه الطبيعي في هذه الصورة الكلية الشاملة، على أن محاولة الفيلسوف لتجاوز جزئية العلوم للوصول إلى المفاهيم الشاملة" تمثل جوهر الفلسفة.

مباحث الفلسفة

إن الفلسفة تطرح أربعة أنواع رئيسية من الأسئلة، يتمحور كل منها حول مبحث من المباحث الأساسية الكبرى، وهي:

مبحث الوجود (Ontology)

يدعى ذلك الفرع من الفلسفة الذي يهتم بدراسة الوجود والعلاقات القائمة بين الموجودات باسم الميتافيزيقا (*Metaphysics*) وهي كلمة يونانية الأصل تعني "ما وراء الطبيعة". وهذه التسمية مناسبة من حيث أن غالبية أصناف الموجودات أثارت جدلاً واسعًا بين الفلاسفة، كما لو كانت "فوق" الطبيعة أو "بعد" الطبيعة.

ومن بعض أصناف الموجودات التي أثارت اختلافًا كبيرًا بين الفلاسفة: الموجودات المادية، الأحاسيس النفسية، المثل والأفكار. مثلاً:

- ديموقريطوس (قبل الميلاد) وماركس (1883م) رأوا أن الموجودات الأساسية هي المادية، وكل ما هو معنوي أو فكري تابع لها.
- باركلي (1753) رأى أن المثل والأحاسيس النفسية هي الأساس، والموجودات المادية ثانوية.
- أفلاطون رأى أن المثل هي الأساس، والموجودات المادية ثانوية.

كما اختلف الفلاسفة حول إضافات أخرى للموجودات منها "النفس وما يرتبط بها، الزمان والمكان، الله والعالم المادي"، وما يتفرع عنها من جزئيات.

مبحث المعرفة (Epistemology)

يسعى هذا الفرع من الفلسفة، المسمى الإبستيمولوجيا، إلى دراسة نظرية المعرفة، أي البحث في طبيعة المعرفة، أصولها، حدودها، وطرق اكتسابها، وترجمتها غالبًا إلى "علم المعرفة".

والتي تبحث في شروط حصول المعرفة، وعموماً المعرفة العلمية بشكل خاص، إضافة إلى الحديث عن مناهج العلم، فروضه، تاريخه، تقسيمه، وموضوعيته، وغيرها. كما تتساءل الإبستيمولوجيا عن إمكانية وصول المعرفة المطلقة، وما أساسها أو مصدرها.

وهنا اختلف الفلاسفة والإبستيمولوجيون كثيراً:

- أرسطو (322 ق.م) وأصحاب نظرية المماثلة بالواقع يرون أن صدق وصحة المعرفة يكمن في التطابق بين الأقوال والوقائع.
- أنصار النظرية البرجماتية (*Pragmatism*) يرون أن صدق القول أو النظرية يكمن في النجاح العملي.

- الفلسفة التجريبية (*Experimental*) مثل جون لوك (1704) ودافيد هيوم (1776) تعتبر التجربة المصدر الأساسي للمعرفة، وتعتبر الوضعية المنطقية التي ينادي لها وايجتنباخ الوريث الشرعي للتجريبية الحسية في القرنين 18 و19.

- دعاة الفلسفة العقلية (*Rationalism*) مثل ديكارت (1650م) وسبينوزا (1677م) وفيرون (1716م) يرون أن المعرفة الحقة ذات مصدر عقلي وليس حسي تجريبي.

مبحث المنطق (Logic)

يبحث علم المنطق في عملية فكرية ذات أهمية بالغة، شائعة في النشاط العلمي والفكري والحياة العملية، وهي عملية الاستنتاج (*Deduction*)، أي استخلاص نتيجة معينة من مقدمات محددة أو معطيات. لكن دراسة علم المنطق لا تقتصر على الاستنباط فقط، بل تشمل أيضاً الاستقراء (*Induction*)، حيث يتعمد الإنسان تجاوز المعطيات للوصول إلى نتيجة جديدة، مستفيدة من المعطيات السابقة، لتوليد معرفة جديدة.

إذن من الأهمية بمكان أن يدرك الإنسان ما يفعله عند الانتقال من المعطيات إلى النتائج، فهنا يكمن الفرق بين أن يكون الإنسان منطقياً في تفكيره أو غير منطقي، بين أن يكون عقلانيًا أو غير عقلاني. أما دور علم المنطق فهو دراسة وصياغة القوانين التي تترتب عليها عملية الانتقال هذه، ومن هنا فإن للمنطق فائدة كبرى في شحن القدرات العقلية وجعل الإنسان أكثر استعدادًا للتفكير النقدي.

مبحث القيم (Axiology)

ما الذي تسعى الفلسفة للوصول إليه في مبحث القيم؟ أشياء كثيرة، لربما كان أهمها دراسة العلاقة بين الأحكام الوصفية والأحكام القيمية، بين ما يمكن تسميته بعالم الحقائق وما يمكن تسميته بعالم القيم.

القيم متعددة، فبالإضافة إلى قيمة الخير، هناك قيم أخلاقية أخرى تتعلق بالأفعال مثل قيمة العدل، قيمة الحق، وقيمة الجمال. وقد اختلف الفلاسفة منذ القدم على نوع الحقائق المعنية وطبيعة العلاقة بينها وبين القيم، وكذلك على مدى كون القيم نسبية أم مطلقة.

- نجد أولاً المذهب النفعي (*Utilitarianism*) الذي نادى به بنتام (1832) وجون ستيوارت ميل (1873)، ويربط بين كون فعل ما فعلاً خيرًا وبين كونه يحقق قدرًا من المنفعة.

- على الطرف المقابل، يقف الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (1804) الذي رفض ربط القيمة الأخلاقية للأفعال بالنتائج المترتبة عليها، فالكذب عند كانط عمل غير أخلاقي حتى ولو كان يؤدي إلى منفعة، والصدق واجب حتى لو كان يؤدي إلى خسارة. وهذا ما يسميه كانط بـأخلاق الواجب.

- في القرن الحالي، شهدت الفلسفة الأخلاقية تعددًا كبيرًا في المذاهب، منها المذهب المرتبط بالوضعية المنطقية (*Positivism Logical*) الذي يرى أن الألفاظ لا تشير إلى أي معنى معرفي، وأنها لا تذكر حقائق بل تصف فقط.